

سيكولوجية الإنسان الطائفي

نصري الصايغ

I ـ الكوجيتو

«أنا طائفي، إذًا أنا موجود.»

خارج هذا الكوجيتو، اللبنانيُّ، كمواطنٍ، غيرُ موجود. إنّه في مدار العدم السياسي.

هذا الطائفي، الممتلئ بالوجود، يُقْرأ في السياسة والإدارة والأحزاب. ولكنّ قراءته السيكولوجية، لفهم آليّات الفعل عنده، غيرُ متوفّرة، وغيرُ يسيرة. فما هي سيكولوجية الإنسان الطائفي؟ كيف يَهْرب من المنهجية العقلية الصارمة إلى ممارسة الهوى، فيقيم في خيارات الازدواج المفهومي والقيمي؟ بلغة مبسَّطة، كيف يختار الإنسانُ الطائفيُّ مفاهيمَ متناقضةً، وسُلّمَ قيم غيرَ أخلاقي، كمرتكزٍ لأحكامه؟ وكيف يقيم موازينَ القياس والتمييز والكفاءة لإصدار الأحكام؟ أو، بمعنًى يقترب من المفردات العامية، «كيف يستوي عنده البريءُ والمجرم، السارقُ والآدمي، الكاذبُ والصادق، و. . العدوُّ والصديق؟»

لجأتُ إلى علم النفس لدراسة سيكولوجية الإنسان الطائفي، مؤسِّسًا محاولتي على تجربتيْن فذَّتيْن خَبِرَهما الدكتور مصطفى حجازي في كتابيْه، **سيكولوجية الإنسان المقهور والإنسان المهدور**، لرسم صورةٍ تقريبيةٍ لسمات السلوك الطائفي وآليّاته ومرجعيّاته وأزماته، وعلاقةِ هذا السلوك الجمعي بصعوبة الانتظام في المؤسسات الديموقراطية الحديثة، وكفاءةِ هذا السلوك في تعطيلِ مفهوم الولاء العامّ وتشليعِه إلى ولاءاتٍ دونيةٍ لاغيةٍ للوطن، وقدرةِ هذا السلوك على منع التغيير والنموّ، وعبقريتِه في إعادة إنتاج المشكلات ذاتها، مرّاتٍ تلوَ مرّات، مع تضخُّم نفاجيّ يصل إلى حدود الهستيريا السلوكية، المعبَّر عنها (إعلاميّاً) بالاصطفافِ الطائفي اللاغي للتمييزِ والتعقّلِ والنقد.

II ـ نافذة جوهاري

أبدأ بفتح «نافذة جوهاري.» والغرضُ من ذلك تتبُّعُ المسار الذي يَسْلكه الطائفيُّ في معراجه السياسي/الاجتماعي، وتحديدُ سُلّم معاييره الاجتماعية والقيمية

إنّما، قبل التورّط في الكشف، لا بدّ من ملاحظةٍ أساس: فلكي يحافظَ الإنسانُ على توازنه النفسي، وعلى موقعه الاجتماعي، فإنّه يَكْشف عن حسناتٍ لديه، ويُخْفي مثالبَ وأخطاءً وعيوبًا؛ ذلك لأنّ الكشف عن هذه الأخيرة يخرِّب التوازنَ الداخلي، ويقلِّص من حجم حضوره واحترامه في المجتمع

لنعدْ إلى النافذة. فهي تتألّف من مربّع كبير، ينقسم بدوْره إلى أربعة مربّعات هنا رسمٌ توضيحي، يختصر المناطقَ الأربعةَ التي تقيم فيها شخصيةُ الفرد بأبعادها:

منطقة وضح النهار	بعدٌ معروفٌ من الذات، مجهولٌ من الآخر	بعدٌ غيرُ معروفٍ من الآخر، ومعروفٌ من الذات (بعدٌ مكتومٌ جداً)	**المنطقة الخفية**
المنطقة العمياء	بعدٌ معروفٌ من الآخر، وغيرُ معروفٍ من الذات	بعدٌ غيرُ معروفٍ لا من الذات ولا من الآخر	**المنطقة المجهولة**

تشير «منطقةُ وضح النهار» إلى الفرد الذي تَظْهر خصالُه وصفاتُه له وللآخر؛ فهي معروفةٌ للطرفيْن أما المنطقة الخفيّة، فتُبْرز حرصَ الفرد على إخفاء عيوبه، المعروفةِ منه، عن الآخر، من أجل المحافظة على مكانته الاجتماعية. وأما المنطقة العمياء، فتَظْهر فيها عيوبُ الفرد، من دون إدراكه، فيَعْرفها الآخرُ، ويتصرّف من خلالها، إمّا لإرشادِ المعنيّ إلى ضرورة تصحيح عيوبه أو لنقدها. وأما المنطقة المجهولة، فهي من اختصاص علماء النفس لكشفِ ما فيها.

سأختارُ المربَّعَ الثاني لشرح آليّة التبعية. هنا الإنسان حريصٌ جداً على صورته ليحافظَ على موقعه واحترامه في الوسط الاجتماعي. لذا يلجأ إلى كتمان عدد كبير من أخطائه وارتكاباته («إذا بُلِيتُمْ بالمعاصي فاستَتروا»). إنّه يَرْفض أن يُرى شاذاً على منظومة القيم، ومعيَّرًا لخروجه عن سُلّم الأخلاق السائد. فهو

سيكولوجية الإنسان الطائفي

يقدِّم صورةً لائقةً ومتقنةً عن ذاته، «لُوكًا» أخلاقيّاً يقترب من المثالية والآدمية والصفات الرفيعة: فهو كريمٌ، مندفعٌ، يغار على الآخرين، خَدومٌ، مُضحٍّ، صادقٌ، صاحبُ مواقف، شجاعٌ، عفيفُ الذَّيْل، نظيفُ الكفّ.. إلى آخره من الفضائل التي تجعل الفردَ قيمةً اجتماعيةً جديرةً بالاحترام.

إذا كانت الشخصيةُ المعنيّةُ بارزةً اجتماعيّاً، فإنّها تَحْرص على إظهار صورة شبه طوباوية، غير معطوبة خلقيّاً. ولذلك، فإنّها تغذّي منظومةً دفاعيةً نفسيةً شديدةَ الأمان، لإخفاء (وتمويه) ميولها الغريبة، وأخطائها الفادحة، وسرقاتِها السالفة، وزعبراتِها، وزناها، وحقاراتها... كي تستقيمَ علاقتُها بذاتها وتسيرَ في حقلٍ آمنٍ اجتماعيّاً.

III ـ الترحيب بالفضيحة

لا يجرؤ على كشف المنطقة الخفيّة، ومن دون عواقب، إلاّ من اطمأنّ إلى حسن استقبال المحيطين به لاعترافاته المشينة. فمَنْ أراد أن يتقدّم في سلّم المافيا، أو في إدارة الجريمة، أو في تجارة المخدِّرات، أو في أسواق التهريب، أو في تجارة الرقيق الأبيض، أو في تهريب السلاح... فإنّه يتباهى بارتكاباته، لكون الاعترافِ بها يشكّل شهادةَ ارتقاءٍ داخل بنية الهيئة التي ينتمي إليها.

في التاريخ، قلةٌ أَفصحتْ عن خفاياها المشينة. المسرح الشكسبيري يحتضن بعضًا من هذه الاعترافات. أباطرة روما، وبخاصةٍ كاليغولا، هم أَفْصحُ مَنْ كَشَفوا المستورَ أمام أعدائهم، ومارسوا افتضاحَهم الذاتي إلى درجة انعدام الحرية. كان لهؤلاء سلطةٌ تخيف، تَفْرض على الناس الإعجابَ المطلقَ بالحرامِ والرذيلةِ والشهواتِ الجامحة والفسقِ والفجورِ و«الحبّ المدنَّس.»

أحيانًا، يَصْعب تصديقُ اللاعقاب بسبب فداحة الافتضاح. على أنّ الاقتراب من الطائفية اللبنانية يَكْشف مدى جرأة بعض القيادات على كشف ارتكاباتهم على الملإ بلا مواربة، وبلا خوفٍ من المحاذير على المكانة الاجتماعية والموقع السياسي والاحترامِ المفترض.

بعضُ زعماء الطوائف في لبنان يتبارى في الانفضاح التلقائي. فهو يَفْتح منطقتَه الخفية: يعترف بالتزوير، بامتلاك «دفترَيْن،» بالتهرّب من الضرائب، وبسرقةِ أموال الدولة، وبالقول «كنتُ مأمورًا لا غير»... البعض يعترف، مع تبريرات واهية، بأفعالٍ حربيةٍ مشينة، بخطفٍ وخطفٍ مضادّ، بتهجيرٍ وتهجيرٍ متبادل. البعض يفاخر بأنّ جدول أعماله، إبّان الحرب، حَفَلَ بقصفِ الأماكن السكنية. يُفْصحون ولا يعتذرون.

كيف يتلقّى الطائفيُّ اعترافاتِ قياداته وارتكاباتِهم؟

ـ فئةٌ تجد المبرِّراتِ السياسيةَ كافيةً: إنّه «منطق الحرب.»

ـ فئةٌ ثانية تضع اللومَ على النظام السياسي الطائفي.

ـ فئة ثالثة تبحث عمّن يُشْبه قيادتَها للتخفيف من وقع الارتكاب.

ـ أما الفئة الرابعة، وهي الأكثر انتشارًا، فإنّها تعبِّر عن إعجابها بجرأة القيادة على الكشف، وذكائها في صياغة الافتضاح، وقدراتِها الهائلة في توظيفها. ولا توجّه إلى القيادة أيَّ نقدٍ، بل تحوِّل سلسلةَ العيوب إلى مجموعة من الخصال التي تتوِّج الزعماءَ المعصومين. أما إذا عَرفت القاعدةُ، المتمثلةُ في الشريحة الكبرى من أتباع القائد، مثالبَ هذا القائد من دون إفصاحه عنها، لكونه شخصيةً مرموقةً ومسموعةً وقيدَ المراقبة الإعلامية، فإنّها تَسْهر على تنظيفِ الصورةِ وتبييضِها من أيّ شائبة، وتَسْهر على إبقاء المنطقة الخفيّة من ذلك القائد طيَّ الكتمان الشديد.

إذًا، الإنسان الطائفي لا يَمْلك القدرةَ على إصدار حكمٍ قيميّ تأسيسًا على سلّم أخلاقيّ. فهو يؤيِّد زعيمه بشكلٍ أعمى: يبرِّر أخطاءه، يزيِّنها أحيانًا، يتباهى بها، يضفي عليه مسحةَ العبقرية والشطارة والهضامة، يفاضل بين أفعالِ زعيمه وأفعالِ خصمه.. ولو كان الإثمُ مشتركًا بين الاثنين.

يَسْقط الإنسانُ الطائفي من درجة الانتماء الإنساني، وينحدر إلى مجموعة الهمج والبرابرة.

الطائفي يبرر أخطاءَ زعيمه، يزيّنها، يفاضل بين أفعال زعيمه وأفعال خصمه ولو كان الإثمُ مشتركًا بين الاثنين.

IV ـ الازدواج الفادح

ما الحُكْمُ الذي يُصدِرُه مواطنٌ لبناني على مَن ارتكب سوءةً خلقيةً؟ سرقةً؟ جريمةً؟ غلطةً؟

الحُكْم لدى الأكثرية التابعة لطوائفها ليس على الفعل المرتكَب وحجمِه وضررِه أولاً، بل على انتماء الفاعل الطائفي

الحكم مخفَّف، أو معزَّز، وفق الانتماء. لذا، فإنّ المجرم بطلٌ لدى أهل طائفته؛ وهو سفّاحٌ بنظر أتباع طائفةٍ أخرى صَدَفَ أنْ كانت في حالِ صدامٍ أو صراع مع الطائفة الأولى ويقاسُ على ذلك في أدقّ تفاصيلِ النفع الخاصّ فكل موبقَةٍ، إنْ كانت مفيدةً، مرحَّبٌ بها. ذلك أنّ مرجعية الفعل ليست الأخلاقَ، أو القيمَ، أو القوانينَ، بل الانتماءُ الطائفي. ولهذا، فإنّ المجتمع الطائفي يتربّى على الفساد والإفساد، بسبب انهيار سُلّم القيم انهيارًا كاملاً. ومثلُ هذا السلوك يفضي إلى انعدام المساواة، واستحالةِ تطبيق القوانين، وتدنّي الإنتاجية، واستباحةِ المؤسّسات

ملحوظة. تحتاج الديموقراطية إلى مواطنٍ حرّ، قادرٍ على الاختيار، وقادرٍ على الانحياز إلى القيم، ومتمكّنٍ من محاسبة المرتكِب.

V ـ البحث عن العقل

حظي لبنانُ بنظامٍ تعليميّ حديث، يفاخر بعدد مدارسه وجامعاته، ويخرِّجُ أعدادًا غفيرةً من الطلاّب في اختصاصاتٍ علمية وإدارية ومهنية وإنسانية وحقوقية وسياسية. يدرُس الطلاّبُ مفاهيمَ العلم، وكيفيةَ بلوغ الحقائق بتدرّجٍ صارم الخرّيجون في لبنان مؤهّلون، بسبب علميتهم، للنجاح. يوظّفون ما تعلّموه في حياتهم العملية والمهنية، وينجحون إنّهم طلابٌ نجباءُ لمناهجَ علميةٍ صارمة

إنما، لماذا، عندما يُصْدِرون أحكامًا في السياسة والاجتماع والتربية والفروع الإنسانية، يتخلّفون عن المنهجية العقلية، ويستبيحون النتائجَ عبر اختياراتٍ اعتباريةٍ منطلقةٍ من نوازعهم وانفعالاتهم وأهوائهم؟ ثم لماذا يتشابه حُكْمُ الطبيب على مسألة سياسية مع حُكْم سائقه، إنْ كانا من طائفة واحدة؟

لماذا يتحوّل إلى آلةِ تسجيل، مثله مثل الأُمّيّ أو المبتدئ في المعارف، يردّد ما يقوله قائدُه الطائفي، ووسائلُ إعلامه، من دون أن يجرِّب وسائلَه النقديةَ وآليّاتِه المعرفيةَ التي يستغلّها بشكلٍ متقن في اختصاصاته؟



أنا مش طائفيّة...
بسْ هيدي سَقافِتْنا!

مقدّمة. الطائفي إنسانٌ لا عقلَ له وللبرهان على ذلك، نبدأ من حيث انتهى باڤلوف:

يتعلّم الكلبُ الاستجابةَ بإفراز اللُّعاب، تمهيدًا لالتهام اللَّحْم، مصحوبًا بظهور ضوء، ينتظم في كلّ مرةٍ يقدَّم إليه فيها الطعامُ، أو يَسْبقه بثوانٍ معدودة. وهكذا، مرةً بعد مرة، يتمرّن الكلبُ على فرز لعابه كلّما رأى الضوءَ، حتى ولو كان **غيرَ** مصحوبٍ بالطعام

الطائفي يسير وفق قانون الاقتران الشَّرْطي. المحرِّض الطائفي يَدْفعه إلى الاستجابة التلقائية. العقل الطائفي لا يفكّر، بل يَنْسخ. يَسْمع، فيستجيب فورًا. إنّه لا يختار، بل ينساق بسرعة يُقاد بإرادته. الطائفيون، حتى عندما يتراءى لهم أنّهم يفكّرون كثيرًا، ليسوا سوى «شَعْبٍ» بلا أفكار. أفكارُهم تسجيلٌ دقيقٌ لشَرْطيات الفكر القادم من فوق، من عند القائد أو الزعيم أو المُرْشِد السياسي أو المرشد الديني. يتمّ ترويضُ الناس طائفيّاً عبر إخضاعهم للذّةِ الامتثال، وجاذبيةِ الحماس، وألَقِ الظهور بمظهر الولاء.

باڤلوف قاس الاقترانَ الشَّرْطيَّ عبر اللُّعاب. القياس على الإنسان يمكن أن يُفيد أكثر. الطائفي لا يتبرّع بلعابه، بل **بوجوده** كاملاً. فإذا لم يأتِه الأمرُ، طالَبَ به؛ وإذا لم يحظَ بتسريحةِ عينٍ أو يدٍ من زعيمه، اعتبَرَ ذلك عقوبةً!

الطائفي يلغي ذاتَه، ويكتفي بامتلاءِ ذاتِ القائد.

VI ـ «العبودية المختارة»

تقوم العلاقةُ بين الطائفي وطائفته ومراتبها، وصولاً إلى قادتها، على قاعدة الولاء والامّحاء. الولاء يتضمّن، أحيانًا، موقفًا عقلانيّاً، يَنْبت من خيار. أما الولاءُ والامّحاء فنتاجُ الهوى. هي، إذًا، علاقةٌ مؤسطَرةٌ، تقوم على التبعية والطاعة وهذا مسلكٌ عرفه العربُ في جاهليّتهم، وفي عصور عودة القبلية عبر الأحزاب في العصر الأموي، حيث التماهي تامٌّ بين أفراد القبيلة وجسدِها المكتملِ في العصبية لا وجود للفرد إلاّ كشيء.

الطائفي، كالقبلي، يعادي مَنْ تعاديه القبيلةُ. ومَنْ يخرج عن هذه التبعية، أيْ من يختار طريقًا آخر، يصير صعلوكًا، يشتري حريّتَه بتشرُّده، ويشتري حياتَه الخاصةَ عبر وضعِها عند تخوم الخطر والموت:

فإنْ كنتَ لا تَسْطيعُ دَفْعَ منيّتي/فَدَعْني أُبادِرها بما مَلَكَتْ يدي!

الطائفي إنسانٌ مواظبٌ على الطاعة. يحبّ إطاعةَ الأوامر، حتى ولو كانت أوامرَ متواترةً من بعيد، أو بـ «الْوَما» [الإيماء]. وإذا كان محمد عابد الجابري يؤكِّد علاقةَ أخلاق الطاعة بالسلطة والناس، فإنّه يمكن تطبيقُ هذه العلاقة، حتى التطرُّف، بين القائد وأتباعِه من طائفته وتُعتبر هذه العلاقة من أشرس الموروثات الصامدة حتى الآن في البنية البطريركية (بحسب هشام شرابي)، حيث يتمّ تضخيمُ مَنْ هو فوق وتضئيلُ مَنْ هو تحت، أيْ «سلطة مطلقة من فوق، وامتثال من جانب الأتباع» (حجازي، **سيكولوجية الإنسان المقهور**، ٢٠٠٥).

ماذا يعني أن يكون المرءُ طائعًا مختارًا ومحبّاً للأوامر؟

في قصةٍ رائعةِ المغازي، يَذْكر زكريّا تامر، في **النمور في اليوم العاشر**، كيف يتمّ تدريبُ النمر، المحبِّ للحرية والانطلاق والغابات، والحالم بعالمٍ بلا قيود، على أن يتحوّل إلى حمارٍ يَنْهق، إلى . أن يصل إلى رتبةِ مواطنٍ يطالب مروِّضَه بأن يأمره بالنهيق! لقد وصل النمرُ إلى مرتبة الطاعة بعد عذاب ومرارات وتجويع؛ أما الطائفي، فإنّه ليس بحاجة إلى أن يتدرّب كي تُنزَعَ منه حريّتُه: فهو يسلِّم بالطاعة منذ نعومة وعيه، وليس بحاجة إلى انتزاع حريّته. لقد تربّى على الاتّباع عاطفيّاً، وعلى الامّحاء العقلي. يَفْقد الطائفي، في هذه الوضعية، مرجعيّتَه الذاتية. إنّه كائنٌ ناقصُ الوجود، يلغي وجودَه، يكاد يكون غيرَ موجود إلاّ في ثيابِ غيره، لا يَمْلك القدرةَ على اتّخاذِ قرارٍ ذاتي، لا يتصرّف من عنديّاته أو على ضوء تحليله الخاصّ ونقدِه الموضوعي وآليّاتِه المعرفية. لقد اختار الأَسْرَ، وقَبِلَ بهذه الدونية المريحة. ولقد استكان إلى طمأنينةِ الجوابِ الواحد، والقولِ

الطائفي لا يتبرَّع بلُعابه شأن كلب پافلوف، بل بوجوده كاملاً!

المتفرِّد، واليقين الإلهامي، والكلام الذكي، الذي يتميّز به القائدُ الحكيم (من أين تأتيه الحكمة؟).

الولاء والاتّباع شرطهُما التسليمُ. والتسليمُ بالشيء يكون بالقلب (الهوى)، أو بالعقل. وحدَه العلمُ يَفْرض التسليمَ بالبرهان والحجّة والنقد. فمَنْ قَبِلَ بالتسليم القلبي، فَقَدَ القدرةَ على تشغيل ميكانيزمات الفكر. أما مَنْ يَرْفض الولاءَ والانتماء القبلي/الطائفي/العشائري الموروث، فهو يُقْدم على ذلك الرفض تأسيسًا على موقفٍ عقلاني ونقدي ومتحرّر. وبهذا القرار، لا يسلِّم بأيّةِ مرجعية، معرفيةٍ أو سياسيةٍ أو اجتماعية، غيرِ مرجعيته العقلية.

VII ـ الخوف الشرس

لا يَصْعب على المُتابع لحالة الإنسان الطائفي في لبنان (وفي ما بعد، في العراق وما حوله) تصديقُ مقاربة العالِم أنزيو لمرض الامّحاء. فاللبناني الطائفي يعتبر الطائفةَ أمَّه، وهو في حنين دائم إليها، بدرجة انجذابٍ وانفعالٍ قويّ إلى رحمها. إنّه، في هذه الوضعية الحمائية، جنينٌ بصورة رجل: إذا شعر أنّه خارج الرَّحم، أحسّ بالعري والعطش، فَيطلب الثديَ بديلاً ليرضَعَ منه عافيتَه المعيشيةَ والاقتصاديةَ والنفسية طمأنينةٌ مرغوبة، مبعثُها الحضنُ الحميم: فالطائفي يسْكن ويقيم في جغرافيةٍ طائفية، والجغرافية أمُّه بشرط أن يكون بعلُها زعيمَ الطائفة والحاميَ لها. لا وجود للطائفي في حيِّزٍ خارج الأم ـ الجغرافيا ـ المنطقة.

إنّ ذات الطائفي هي من ذات الطائفة، وفي ذاتها، أو قرب ذاتها وإخراجُه من الرحم أو الحضن، أو فطامُه عن الثدي، قسوةٌ باهظةٌ لا يستطيع احتمالَها، لأنّ ذلك يضعه في مدار الانعدام.

كلُّ فردٍ، عادةً، يودّ أن يكون محتَضنًا؛ ذلك أنّ قسوة العالم الخارجي وعدائيّتَه تَدْفعان به إلى طلبِ حضنٍ يَأْنس إليه. الطائفي عدوُّهُ مقيمٌ في بلده، في طائفةٍ أخرى. خصمُه قريبٌ من أنفاسه، يشاركه المكانَ والزمانَ والعملَ، وهو ملزَمٌ بأن يصوغَ معه حياةً مشتركة. ولكنّه يُقْدم على ذلك بحكم **الضرورة**، لا بحُكْم الحاجة الطبيعية المؤنسنة. هو يفكِّر بأنّه ملزَمٌ بأن يكون شريكًا لعدوّه أو لخصمه. لذا يَلْزم أن يتشبّث بعصبية الولاء، كي لا تنقلبَ معادلةُ الشراكة إلى معادلة قويّ / ضعيف. قوي ينتزع من الضعيف حصصًا ومكانةً. سياسةُ الطائفي مبنيةٌ على نقض القريب، والاتصالِ بالبعيد عبر منطق الحماية. ولسانُ حاله غريمي لا يحميني بل يقتلني، أو يَضْطهدني، أو يهجِّرني، أو يسيطر عليّ، عندما يتسنّى له ذلك في ظروفٍ ملائمةٍ داخليّاً أو خارجيّاً أو ديمغرافيّاً الطائفي يخاف بشكلٍ شرسٍ، لذا يتسلّح بالعصبية ومقتضياتها.

إذا لم تكن الإنسانيةُ حضنَنا المشترك، وإذا لم يكن الوطنُ حضنَنا الجامع، وإذا لم تكن الدولةُ حمايتَنا الشاملة وبالقسطاس، فإنّ الطائفة (أو القبيلة أو المذهب أو الزعامة أو المرجع الديني أو الفقهي) هي الحضنُ المثالي. وهي حضن يشترط على الفرد أن يتخلّى عن حقِّه بالطلاق

هذا السياق يفسِّر تأزيلَ السلطة الطائفية وقياداتِها المتوارثةِ قديمًا وحديثًا في عائلاتٍ لا تُمسّ شجرةُ نسلها بشكٍّ أو نقص. وهذا التأزيل يؤهِّل الطائفيةَ للدخول في منافسة رابحة مع كل حضنٍ منافس (الوطن، الدولة، المؤسسة المدنية). فولادةُ الإنسان من رحم ما تشكِّل مرجعًا ذاتيّاً وطبيعيّاً، يَرِثُه ويُرَوِّض على فضائله ورذائله؛ وأما الحضنُ الآخر فمُكْلف، ويتطلّب ممارسةَ الحرية والاختيار. ومن اعتاد الاتّباعَ والانزلاقَ اللاإرادي يَصْعب عليه تنكُّبُ الحرية وتبعاتِها.

الطائفي، إذًا، يفضِّل الرِّضاعةَ على الزِّراعة. قيمتُه في حجمِ طاعته، وسهولةِ ولائه، لا في إنتاجه.

VIII ـ العقل النباتي

الطائفية، لكونها الحضنَ، تحوِّل أبناءها إلى أصنافِ آلهة، يفتتنون بذواتهم. نرسيسيون هم، يروْن في صورتهم اكتمالاً

سيكولوجية الإنسان الطائفي

مؤطّرًا. يغرقون في صورة الزعيم أو القائد. يوظّفون حبّهم من أجله. يَدْخلون إلى العائلة الطائفية ويشكّلون نظامًا مغلقًا. يتعذّر عليهم إقامةُ علاقاتٍ صحيّةٍ مع الآخر المختلف. وتوفّر لهم هذه العائلةُ «الحضانةَ والحمايةَ والعزوةَ والمغانم.» وتنتشر في ثقافة العائلة/الطائفة عصبياتٌ انتفاعيةٌ مصلحية، تنشّط آليّاتِ «التقرّب والتزلّف والتسابق على الولاء، والارتهان والدسائس » يعيش المقرّبون من العائلة على الدسائس. ينتفي مبدأُ المحاسبة والإنتاج، ويرتقي مبدأُ الطاعة إلى سموّ الإخلاص.

أين مقامُ العقل في هذه الوضعية؟ كيف يقيم الإنسانُ الطائفي إنسانيّتَه ويرتّب سلّم القيم الذي عليه أن يتسلّقه في سلوكه؟ أسئلةٌ يَصْعب إيجادُ جواب لها. إلاّ أنّ محاولة الدكتور مصطفى حجازي قد تكون مفيدةً في ترسيم بعض المعطيات وتحديد بعض الآليّات:

«فالإنسان، من حيث التعريف، هو الكائن المفكّر المعبّر.» ويعرّف حجازي التفكيرَ، وفق وجهة نظر علم النفس، بأنّه «المعالجة الذهنية للتصوُّرات بقصدٍ هادف.» أما فلسفيّاً، فإنّ تعريف الفكر يَشْمل «كلّ ما يؤثّر في الوعي، وهو مجموعةُ الآراء والمذاهب المشتركة بين أفراد جماعةٍ ما، يتّخذون منها إطارًا مرجعيّاً يحدّد الرؤيةَ ومنهجَ المقاربة والتعامل وأسلوبَ الحكم والتقويم ومرشد الممارسة واتخاذ القرارات والمواقف» (حجازي، **الإنسان المهدور**، ٢٠٠٤).

الفكر، بما هو نتاجُ التفكير، يَخْدم غايةً كبرى هي سيطرةُ العقل على العالم وظواهره، ومن ثم سيطرةُ الإنسان على ذاته وواقعه، وصولاً إلى صناعة مصيره. فهل يَصْلح هذا التحديدُ لمحاسبة الفكر الطائفي؟

إنّ الطائفية، كالمخابرات والاستبداد، تَحْجر على العقول، وتَدْفع الإنسانَ إلى الرضوخ، وبالتالي تعطّل العقلَ. إنّها تَهْدر العقلَ الإنساني، وتحوّله إلى مستوى من النشاط العصبي النباتي «وإشباعِ حاجاتِ البقاء البيولوجي »

وهكذا يصير الإنسانُ الطائفي أسيرَ «الهيپوتالاموس،» وهو كتلةٌ وسط الدماغ، وزنُها خمسة غرامات، تضبط وظائف الأكل والنوم والجنس والانفعال (حجازي، **الإنسان المهدور**، ٢٠٠٤) الطائفي يعيش، إذن، على مستوى أداء الهيپوتالاموس، بلا نقاشٍ أو حوارٍ أو تواصل. ولقد ثَبَتَ:

«أنّ تشجيع الفكر، من خلال الحوار والنقاش وتعزيزهما، يُطْلق مادّتَي الأندروفين والدوپامين في الدماغ، وهما ينشّطان الفكرَ التحليلي النقدي ويساعدان على زيادة تكوين الشبكات العصبية في الدماغ، من خلال نمو الشُجَيْرات التي تَرْبط الخلايا العصبية. وكلّما زادت التحدّياتُ الذهنية، ومعها النشاطُ المعرفي (ابن سينا)، نَمَتْ هذه الشجيْراتُ وتوفّرتْ للدماغ شبكاتٌ عصبيةٌ جديدةٌ تزيد من كفاءته وعلى العكس، فإنّ التزمّتَ والحَجْرَ على الفكر من خلال التحريم والتجريم، وكذلك التلقين وفرض الجواب الصحيح الواحد، تؤدّي إلى تصلُّب الدماغ وتردّي كفاءته» (وفق ما يقوله جنسن ٢٠٠١، نقلاً عن حجازي، **الإنسان المهدور**، ٢٠٠٤).

هذا يعني أنّ الطائفي يتبرّع بخصاءِ فكره، مفضّلاً التبعيةَ الطفيْلية. وإلاّ فكيف نفسّر انتقالَ طائفةٍ، بأكثريّتها، من موقع تقدُّمي إلى موقع رجعي، من حلفٍ مع عبد الناصر إلى حلفٍ مع أميركا، ومن تحالفٍ مع الفلسطيني إلى تحالفٍ مع حليفٍ إسرائيلي سابق؟ كيف نفسّر ذلك بغير ما ورد أعلاه، وبخاصةٍ أنّ مثقفي الطوائف هم مِنْ مروّجي حالات الانتقال من النقيض إلى النقيض؟ إنّهم مثقفون على مستوى أداء الهيبوتالاموس، لا غير

العقل مستغنًى عنه. المفكّر مكفَّر. الأداء الفكري لا يرتقي عن إيجاد الميل إلى التبرير والتفسير. الطائفي ينطلق من يقينه الطائفي، بمستوى انطلاقة المؤمن بيقينه اللاهوتي.

إنّ أهم ركائز القبول بالاستبداد والتبعية هي هدرُ الفكر والوعي والطاقات والطائفيون، من كل المِلل والنِّحَل، والمتباهون بتفوُّقهم وثقافتهم، هم كائناتٌ مهدورة، متوهّمة، مشوَّشة، العقل عندها موظّفٌ تلقائي. الكرامة مذيّلة بقيمة الولاء الطائفي. الحرية هي

الطائفي يفضّل الرِّضاعة على الزراعة: قيمتُه في حجم طاعته وسهولة ولائه، لا في إنتاجه.

في القدرة على الاعتداء الدائم على الخصوم الطائفيين، بكل مفردات اللغة الاتهامية والعنصرية الساقطة.

VIII ـ تلخيص

إذا كان الفكر بخير، فإنّ المجتمع بخير

إذا كانت الحرية بخير، فإنّ الديموقراطية بخير.

إذا كان الانتماءُ على قاعدة الاختيار، فإنّ العقل هو المرجعُ الأخير، والضابطُ للأهواء والانفعالات والرغبات.

وعليه، فإنّ الثقافة الطائفية مبنيةٌ على التقليد والفوقية واليقينية، ولا يمسّها نقد. إنّها تلغي الاعترافَ بالآخر، كإنسانٍ أو كقيمةٍ متميّزة في موقع إنساني، له حقوقُه وعليه واجبات. مع الطائفية تنهار العلاقاتُ الإنسانية، وتَسْقط فكرةُ العدالة، وتنتفي فكرةُ الكفاءة، وتسود الغثاثةُ مع الولاء، وتسيطر علاقاتُ النفوذ على قاعدة أداءِ الواجبات والحقوق.

لا وظيفةَ للمعرفة والفكر في المجتمع الطائفي. ففي هذا المجتمع يتحوّل الذكاءُ، من أساسٍ نظري للإنتاج وتنظيمه وتزخيمه، إلى تحايل. فالذكي هو الثعلبُ . لا غير. هو الذي «يصل» كيفما كان، لا وفقَ قواعد الإنتاج والعطاء والارتقاء

ما قيمةُ برامج التربية الحديثة؟

ما قيمةُ مشاريع التنمية؟

ما جدوى البحث في الإصلاح؟

ما مستوى صدقية بناء دولةٍ ومؤسسات؟

ما صحةُ أنّنا في وطن؟

الطائفية سلاحُ دمارٍ شامل. إنّها أداةٌ لاغية. وأولُ مَنْ تمّ إلغاؤهم هم الذين انضووا تحت أقدامها!

هذا موجَزٌ عن الأداء العقلي والسيكولوجي والبقية تأتي في دراسة تالية.

بيروت

نصري الصايغ

كاتب من لبنان من كتبه **بولينغ في بغداد**، **وحوار الحفاة والعقارب**